

أضواء على مجتمع حاحا زمن السعديين من خلال مشاهدات الرحالة الإسباني لويس ديل مارمول كريخال

Some lights on the society of Haha in the age of the Saadian State
through the sightings of the Spanish traveler Luis Del Mármol Carvajal

د. عادل بن محمد جاهل
جامعة ابن زهر - أكادير، المغرب

تاريخ القبول: 2019/11/27

تاريخ الإرسال: 2019/10/25

ملخص:

تهدف هذه الورقة، إلى تسليط الضوء على جانب من الرحلات الاستكشافية الإسبانية لبلاد المغرب الأقصى، زمن الدولة السعدية، من خلال نموذج رحلة المستكشف والأسير الإسباني لويس ديل مارمول كريخال، وتشتمل هذه الورقة، على مجموعة من المباحث حاولنا من خلالها، التعريف بهذه الرحلة، وبصاحبها، وسياقها التاريخي، وأهم الأهداف التي جاء من أجلها صاحب الرحلة إلى المغرب، ناهيك عن الصور والانطباعات، التي خلفها الرحالة المذكور، حول مجال إقليم حاحا.

الكلمات المفتاحية: إقليم حاحا؛ الدولة السعدية؛ الصورولوجيا؛ الرحلة الإسبانية؛ لويس ديل مارمول كريخال.

Abstract:

This paper aims to highlight part of Spanish expeditions to Morocco during the Saadian period through the model of the journey of the Spanish explorer and captive Luis Del Mármol Carvajal, This paper includes a series of Topics; through which we tried to study the images and impressions left by the said explorer about the region of Haha.

Keywords: region of Haha, Spanish expeditions, Saadian state, Imagology, Luis Del Mármol Carvajal.

مقدمة:

تُشكل كتب الرحلات والجغرافية، على اختلاف أنماطها، وتباين مقاصدها، إطارا مرجعيا، لا غنى عنه بالنسبة للباحث في حقل العلوم الإنسانية، خاصة لما لها من أهمية بالغة في دراسة التاريخ؛ لأنها تتضمن بحق، معطيات وتفاصيل، مهمة ودقيقة وكثيفة، عن الأحوال: الاجتماعية، والاقتصادية، والزراعية، والعسكرية، والعادات، والتقاليد، والمعتقدات والطقوس، والمتخيل، وغير ذلك من مظاهر النشاط الإنساني العام التي يندرُ في أحيان كثيرة جدا وجودها في المظان التاريخية التقليدية. ويُعتبر كتاب (إفريقيا) للرحالة والمؤرخ الإسباني لويس ديل مارمول كربخال، من بين الشواهد المصدرة التاريخية الأجنبية القليلة التي أُرثت لإقليم حاحا، زمن الدولة السعدية، حيث تضمن الكتاب المذكور، معلومات وبيانات تُعتبر بحق، نادرة وثمينة ومثيرة، وفلما تلتفت إليها المصادر المحلية، المكتوبة باللغة العربية، والتميزة بالشح والابتسار، على صعيد عناصرها الإخبارية، وعليه يُمكن اعتماد كتاب (إفريقيا) للرحالة المذكور منطلقا رئيسيا، في إعادة تركيب جزء من أحداث الماضي الحاحي، خلال الحقبة التاريخية المذكورة أعلاه.

فما هي إذن الصُور التي رسمها الرحالة والمغامر الإسباني لويس ديل مارمول كربخال عن حاحا والحاحيين؟ وإلى أي مدى تمكّن من تشخيص الواقع الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والديني للمنطقة المذكورة، خلال بدايات فترة الدولة السعدية؟

أولا- لويس ديل مارمول كربخال (حياته، رحلاته، مؤلفاته):

1- نبذة عن حياة لويس ديل مارمول كربخال:

ولد الرحالة والمؤرخ الإسباني مارمول كربخال، في أوائل القرن السادس عشر وتحديدًا سنة 1520م، في مدينة غرناطة، أي بعد نحو اثنين وثلاثين سنة من احتلالها من طرف الملكين الكاثوليكين، فرناندو الثاني ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة⁽¹⁾، وينحدر صاحب الترجمة من عائلة متوسطة الحال، حيث كان والده يشتغل كاتبًا في محكمة غرناطة أمّا والدته فلا نكاد نعرف شيئا عنها، بيد أنّ هناك معلومات تقول إنّ ابن لزوجة غير شرعية، قد تكون الزوجة الثانية، الشيء الذي جعل محاكم التفتيش، تتهمة بأنّه من أصول موريسكية⁽²⁾

وإلى جانب ما سبق ذكره، شارك كرنخال وهو لا يزال في ريعان الشباب، في الحملة التي شنّها عاهل إسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية كارلوس الخامس على تونس في عام 1535م⁽³⁾، التي كانت تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية، حيث حضر احتلال هذه المدينة، وما جرى فيها من أعمال السلب والنهب، وهتك الأعراس، وتدنيس الحرمات، من طرف المرتزقة الصليبيين⁽⁴⁾، وفور مغادرة أسطول كارلوس الخامس الأراضي التونسية، بقي كرنخال في شمال إفريقيا مدة اثنين وعشرين عاما، قصد التقصّي والاستخبار لفائدة الإسبان، وأثناء قيامه بهذه المهمات التحسسية في بلاد المغرب الأقصى، أسر من قبل القوات التابعة للجيش السعودي، حيث بقي عندهم نحو سبعة أعوام وثمانية أشهر متنقلا معهم أين حلّوا وارتحلوا⁽⁵⁾، وقد كانت هذه المدة، التي قضاها كرنخال أسيرا لدى السعوديين فرصة مناسبة وثمينة له، لدراسة مجمل الأوضاع: الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية والدينية، والثقافية، للمناطق المغربية التي زارها ومرّ منها، مثل: سوس الأقصى، وتارودانت والصحراء، وفاس، ومراكش، وغيرها.

وجدير بالإشارة في هذا السياق، أن الرحالة كرنخال قد عاصر حوالي ثلاثة ملوك الدولة السعودية، وهم: أحمد الأعرج (1517-1544م)، ومحمد الشيخ المهدي (1544-1557م) وعبد الله الغالب (1557-1574م)، وانطلاقا من ذلك، وصف عن مشاهدة ومعاينة حربهم، وسلمهم، وخلافهم، ووفاتهم، وأفراحهم، وأتراحهم، وبخاصة علاقاتهم بمنافسهم من الوطاسيين ملوك فاس وأترك الجزائر⁽⁶⁾، وأثناء هذه المدة، قام كرنخال بتعلم اللغتين الأمازيغية والعربية⁽⁷⁾.

وكيفما كان الحال، فإنّ الرحالة كرنخال استطاع أن يحرّر كتابا مهما حول جغرافية وتاريخ إفريقيا، حيث دوّن فيه وقائع عاينها، أو سمع أخبارها، من شخصيات شاركت فيها، إلى جانب هذا الكتاب، ألّف الرحالة كرنخال كتبا أخرى، منها: كتاب (وقائع ثورة الموريسكيين بغرناطة)، وكتاب (صلوات القسيسين الرومان)، وكتاب (إلهام الجيش المقدس) توفي صاحب الترجمة في 13 نونبر 1600م، في نواحي مدينة مالقة⁽⁸⁾.

2- كتاب إفريقيا (قراءة في قيمته العلمية، ومكانته التاريخية، ودوافع التأليف):

يُعتبر كتاب (إفريقيا) للإسباني كرنخال، من أهم كتب الجغرافيا والرحلات، التي ألّفها الأجناب عن تاريخ إفريقيا بشكل عام، والمغرب بشكل خاص⁽⁹⁾، هذا الكتاب الذي حرّره صاحبه باللغة الإسبانية (القشتالية)، صدر سنة 1573م في مدينة غرناطة، يتكون هذا الكتاب الضخم، من ثلاثة مجلدات، وكلّ مجلد من هذه المجلدات، ينقسم إلى أجزاء، عالج فيها كرنخال، كلّ ما يتعلق بتاريخ إفريقيا وجغرافيتها، وتحديدًا مناطق مثل: شمال إفريقيا والصحراء الكبرى، بما فيها النيجر، وإثيوبيا، ومصر، وغيرها.

وفي ذات السياق، نسجّل أنّ كتاب (إفريقيا) لكرنخال، قدّم قراءة أوروبية جديدة حول إفريقيا، مخالفة للقراءة الكلاسيكية الموروثة، فكانت قراءة متأثرة إلى حدّ بعيد بقراءة الرحالة المغربي الحسن محمد الوزان الفاسي، المعروف بليون الإفريقي، ومستفيدة أيضا مما توصل إليه الملاحون والمستكشفون الإسبان والبرتغاليون، في القرن السادس عشر الميلادي ورغم ذلك فقد كان لقراءة كرنخال مآخذ عدة، منها أنّه لم ينس ذاتيته الأوروبية المتعالية عند تناوله المسائل المغاربية، إضافة إلى تواضع معارفه بخصوصيات التاريخ السياسي للمنطقة ورغم كلّ هذه الهنات، فإنّ عددا من الباحثين اختاروا التعامل مع كتاب كرنخال (إفريقيا) وفضلوه على كتاب (وصف إفريقيا) للحسن محمد الوزان الفاسي؛ باعتبار أنّ معطيات المؤلف الأوّل، أكثر تحيينا من الثاني، خصوصا في موضوع تحولات النصف الثاني من القرن السادس عشر ببلاد المغرب⁽¹⁰⁾.

اعتمد الرحالة كرنخال في تحرير صفحات ومضامين كتابه، على مجموعة متنوعة من المصادر التاريخية والجغرافية، أبرزها كتاب (وصف إفريقيا) لمؤلفه الحسن محمد الوزان الفاسي، حيث اعتمد عليه كثيرا، بل ونقل منه فصولا عديدة، حرفا بحرف، كما أنه اعتمد على كتاب أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم ابن الرقيق القيرواني، الموسوم بـ (تاريخ إفريقية والمغرب)، ثم كتاب ابن الجزار، المعنون بـ (نوادير الزمان).

أما عن دواعي تأليف كتاب (إفريقيا)، يقول الرحالة كرنخال في هذا الصدد: "ولم يكن لي قصد في تأليف هذا التاريخ كلّهُ إطلاقا إلا تشجيع الدول الكاثوليكية على حمل السلاح

ضد هؤلاء المسلمين الذين يكتسحون بوقاحة مجد المسيحية ولا يفتنون يحاربونا ويتحنون الفرص لتحطيمنا"⁽¹¹⁾.

ومهما يكن من أمر، فإنّ كتاب (إفريقيا) لكربخال يبقى رغم كلّ الهنات والانتقادات الموجهة إليه، من بين التصانيف المهمة والقليلة، التي حاولت دراسة مجال شمال إفريقيا بكيفية أصيلة وعميقة⁽¹²⁾، من أجل تكوين مادة معرفية دقيقة للأوساط العلمية والاستكشافية والاستعمارية الإسبانية. وقد استفاد هؤلاء مما احتوى عليه هذا المؤلّف الضخم، من بيانات متنوعة، ومعطيات عالية القيمة، كمّا ونوعا، كيف لا؟ وهو لأمس جوانب كثيرة من تاريخ المنطقة المغاربية، وبنياتها الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية والسياسية، والدينية، والعمرانية.

ثانيا- إقليم حاحا (الحدود والمظهر العام للمنطقة):

يُشير الرحالة الإسباني كربخال إلى أنّ مجال إقليم حاحا يقع في أقصى الجزء الغربي لمملكة مراكش، التي بدورها تقع في الجزء الغربي لبلاد البربر، حيث يحدها من جهة الغرب (المحيط الغربي)، و(وادي سوس) في الجنوب، و(جبل الأطلس) في الشرق، و(نهر أم الربيع) في الشمال، ويذكر أيضا أنّ إقليم حاحا يحتل جميع مجال الأطلس الكبير، الذي تُسميه ساكنة المنطقة المحليين بـ (أيتُّ أوكال)، وجاء في متن الرحلة، أنّ إقليم حاحا يحده من جهة الغرب والشمال (المحيط الغربي)، ومن جهة الجنوب (جبال الأطلس الكبير)، المتاخمة لإقليم سوس، ومن جهة الشرق (نهر أسيف المال)، الذي يفصله عن إقليم مراكش⁽¹³⁾.

علاوة على هذه الإشارات الجغرافية، يُضيف الرحالة كربخال أنّ مجال إقليم حاحا، يطغى عليه الطابع الجبلي، حيث يُشير إلى أنّ المنطقة المذكورة، هي عبارة عن "جبال عظيمة وعرة شاهقة جدا، وصخور مغطاة بالأشجار"⁽¹⁴⁾، إلى جانب هذه المعلومات التضاريسية، يؤكد صاحب التأليف أنّ إقليم حاحا يعرف تواجد بعض الشبكات المائية، مثل: الجداول وبعض الأودية الصغيرة، وبعض العيون، بيد أنّ هذه الأخيرة، رغم أهميتها، تبقى ضعيفة مقارنة بجهات أخرى من المغرب الأقصى⁽¹⁵⁾.

ثالثا- إقليم حاحا في مرآة كتاب إفريقيا:

1- الحياة الاجتماعية:

تناول الرحالة كرنخال، في أثناء تأريخه لإقليم حاحا، جملة من القضايا، ذات البعد الاجتماعي، والاقتصادي، والعلمي، والديني، وهي تفاصيل، غلب عليها طابع التجسس ومراكمة المعلومات، هي في الجمل، عبارة عن شتات من الأخبار، توخّدها رغبة استجلاء تاريخ وإمكانات أقاليم المغرب الأقصى، ورغم الطابع الاستعلائي، والمشاكل التي تطرحها مثل هذه الكتابات، من حيث موضوعيتها، وأحكامها المسبقة، والتي لا تعكس البتة حقيقة الأمور، والتي أيضا لا ترتبط ارتباطا عضويا مع الواقع التاريخي والاجتماعي المغربي إلا أنها في الحقيقة تتضمن معطيات ومعلومات، بإمكانها أن تساعدنا لا محالة في تعميق المعرفة التاريخية حول المنطقة الحاحية والمناطق القريبة منها بشكل خاص، والمغرب الأقصى بشكل عام. وقد كان بإمكان هذه البيانات النادرة، أن يطويها الزمن، وتحشر في غياهب النسيان، لولا أنه اختزنها كرنخال في ذاكرته، ودوّنها في مؤلفه.

أ- التركيبة المجتمعية والصفات الخلقية:

قدّم الرحالة كرنخال، مجموعة من التفاصيل المهمة، عن ساكنة إقليم حاحا، وخاصة تلك المتعلقة بالتوزيع الجغرافي، وعدد الكوادر أو الأسر، المشكلة لكل قبيلة على حدة، كما أنه حاول أيضا، أن يُقدّم تفصيلات ومعلومات، تهم المجتمع الحاحي وخصائصه، الشيء الذي جعل من كتابه المذكور وثيقة إثنوغرافية، عظيمة الأهمية، تقوم على المشاهدة المباشرة والوصف الدقيق لأحوال المجتمع الحاحي، الذي زاره الرحالة الإسباني، وخبر شؤونه عن كثب.

ومن بين الإشارات العديدة، التي سجّلها الرحالة كرنخال عن ساكنة إقليم حاحا، قوله إنّ ساكنة هذا الإقليم يحبون الحروب كثيرا، بل أكثر من هذا، فهم شرسون شراسة لم يكن مبالغا فيها تماما، حيث يعيشون حياة أقرب إلى الاستقلالية، أي أنهم "يعيشون بلا رادع ولا شرطة"⁽¹⁶⁾، كما أنه يُشير أيضا إلى أن إقليم حاحا "كثير السكان، يحتوي على قرى كبيرة ومدن ضخمة، يعمرها قوم مشاغبون"⁽¹⁷⁾، كانوا يتحاربون دائما قبل قيام إمبراطورية

الشرفاء السعديين؛ "لأنهم يعيشون حسب أهوائهم، لا يراعون فيما بينهم شريعة ولا عدالة غير قابلين تحمّل أية سلطة تقمعهم!"⁽¹⁸⁾.

غير أنّ اللافت للانتباه في هذا الجانب، هو تناقض معلومات الرحالة كربيخال، حيث يُشير في موضع آخر من كتابه، إلى أنّ ساكنة إقليم حاحا، بعد أن وصفهم بصفات: "التوحش"، و"الشغب"، و"الشراسة"، و"البخل"، و"القسوة"، و"أعداء ألداء للأجانب"⁽¹⁹⁾ بأنهم متحضرون جدا، ويتقبلون الأجانب اقتبالا حسنا، ويخدمونهم ويعاملونهم معاملة جدّ حسنة، بل ويكرمونهم ويعاملونهم بسخاء⁽²⁰⁾.

أبعد من هذا وذاك، يُحدثنا كربيخال أنّ الحاحيين هم أكثر الساكنة المغربية شجاعة حيث يعتزون ببطولاتهم، كيف لا؟ ورجل واحد منهم يستطيع أن يحارب ألف رجل في بعض المسالك، ويُضيف بأنّ الإنسان الحاحي، إذا لم يقتل اثني عشر أو خمسة عشر رجلا لا يُعتبر أبدا شجاعا!⁽²¹⁾.

علاوة على هذه المعطيات المثيرة، يُبيّن الرحالة كربيخال، أن نساء إقليم حاحا، يتميزون بجمال وجاذبية فريدة، في هذا الصدد، يقول بكلمات مقتضبة، وتصوير بارع معبّر: "النساء [الحاحيات] جميلات، بشراتهن ناعمة بيضاء"⁽²²⁾.

وحسب نفس الرحالة، دائما، فإنّ نساء مدينة أديكيس، هم الأكثر جمالا، وأناقة وبياضا، وأكثر دلالا، وظرافة، في كلّ إقليم حاحا، فهن يعشقن الأجانب كثيرا⁽²³⁾، وأمام هذا الواقع الاجتماعي، فإنّ الرجال كانوا شديدي الغيرة على أعراض نسائهم⁽²⁴⁾، حيث يلجؤون إلى العنف والبطش، خاصة إذا رأوا منهن خيانة، أو شيئا من هذا القبيل؛ "لأنهن ميلات إلى الغرام بطبعهن"⁽²⁵⁾.

وإلى جانب هذه المعلومات الفريدة، سجّل الرحالة كربيخال، بيانات مهمة، تتعلق أساسا بالطائفة اليهودية، التي استقرت في إقليم حاحا، إذ يُشير إلى أنه في مدينة تدنست مثلا، توجد أكثر من مائتي دار لليهود، وكلهم يعيشون في حي منعزل، وفق شريعتهم ويؤدون للعامل مثقالا على كلّ رأس، فضلا عن الجبايات الاستثنائية، التي يؤدي بموجبها

كلّ واحد، أكثر ممّا يؤديه عشرة من أغني سكان المدينة، ومع ذلك فلا يسمح لهم بأن يملكو منازل أو تراثا، ولا أي عقار آخر مهما كان⁽²⁶⁾.

ويُضيف كرنخال أيضا، أنه في جوانب مدينة تگوليت، يوجد بيعة لليهود، يحيط بها أزيد من مائتي دار للتجار والصناع، وهم أغني من يهود مدينة تَدْنِسْت، الأنفة الذكر، ويعاملون أحسن منهم⁽²⁷⁾، كما أنه يوجد في إحدى أطراف مدينة أديكيس، حي لليهود، يشتمل على أزيد من مائة وخمسين دارا، يحمل هذه الساكنة من التجار والصناع، وهم أحرار في معتقداتهم الدينية⁽²⁸⁾.

ب- السكن والمأوى:

اهتم الرحالة كرنخال كثيرا، بوصف المساكن والدور، الموجودة في إقليم حاحا، حيث يقول مثلا في معرض حديثه عن مدينة تگوليت، إن هذه الأخيرة تتواجد فيها منازل عديدة مبنية بالتراب، ودون أيّ تنسيق، وهناك أيضا بعض المباني القديمة، المشيّدة بالحجر والجير⁽²⁹⁾ ويُضيف أنه في مدينة أديكيس، أيضا، يوجد فيها أكثر من ألف دار جيّدة البناء⁽³⁰⁾.

كما لم يفت الرحالة كرنخال الحديث عن الأفرشة والأدوات المنزلية، التي تتضمنها منازل ودور إقليم حاحا، حيث يُخبرنا في هذا الإطار، أنّ الأفرشة في إقليم حاحا، تختلف حسب التصنيف الاجتماعي، ففرش الأعيان يتكون من سرير، يوضع عليه بساط، وفي رأس السرير، وسادات طويلة ضيقة، مصنوعة من صوف، أو قماش غليظ، على خلاف عامة الناس، الذين يفتقرون للأسرة، ويكتفون بحصير من الأسل، أو جلود الضأن، أو الماعز، ويتغطون بقمصان، أو سترات⁽³¹⁾.

ج- العادات الغذائية:

نستطيع القول من خلال ما توافر لدينا من معلومات ومعطيات، المستقاة من كتاب الرحالة الإسباني كرنخال، إن إقليم حاحا وأحوازه عرف خلال عهد السعديين، تراكما جدّ هام على مستوى العادات الغذائية للسكان المحلية، حيث أسهمت ظروف إقليم حاحا

الطبيعية والسوسيو مجالية، المتسمة بقساوة البيئة، وصعوبة المجال، في تشكيل نظام غذائي يُلائم ظروف وغط العيش في المنطقة المذكورة.

ويُلاحظ أيضا من خلال معطيات كرنخال، أنّ الغذاء في إقليم حاحا وأحواز، كان متنوعا إلى أبعد درجة، حيث نجد موادا استهلاكية، كثيرة ومتعددة، فإلى جانب الخضر بأنواعها المختلفة، تتوفر المنطقة على أشجار من مختلف أصناف الفاكهة، مثل: التين والجوز، والكرم، كما أنّ المنطقة غنية بأشجار الأركان⁽³²⁾، الذي يُصنع من لوزها زيت مميز له نكهة خاصة، والذي يُستهلك في المنطقة على نطاق واسع⁽³³⁾، مما يجعله ثروة طبيعية لسكان إقليم حاحا بامتياز⁽³⁴⁾.

إضافة إلى هذه المواد الاستهلاكية، تُنتج المنطقة الحاحية كميات هامة من العسل والسمن، اللذان يستعملان عادة مع رغيف أو مع فطائر، تُصنع أساسا من مادة الشعير أو بذلك الزيت الذي ذكرناه آنفا، بموازاة مع تقدّم؛ تستهلك ساكنة المنطقة لحوم الماعز وبكثرة، خاصة أمام ندرة الأبقار والأغنام، وهناك أيضا الحلوة المصنوعة من دقيق الشعير المطبوخ في اللبن أو الزبد الطري، بيد أنّ الطعام الذي يتناوله الحاحيون بكثرة، وبهم منقطع النظر، هو الكسكس⁽³⁵⁾.

ومن الإشارات الطريفة لدى كرنخال، اهتمامه بآداب الأكل وتقاليده المائدة لدى أهل حاحا، ومما أمكن التقاطه من إشارات في هذا الجانب، أن الحاحيين "إذا أرادوا الأكل جلسوا على الأرض، نساءً ورجالا، وإذا وضعت القصعة وسطهم، أخذ كل واحد منها بيده ممّا يليه أعني اليد اليمنى، معتقدين أنّ الأكل باليسرى خطيئة قاتلة؛ لأنهم يستعملونها عندما يستنجون، ولا يسمح لهم دينهم أن يأكلوا بالملاعق، وإذا ما انتهوا من الأكل لحسوا أصابعهم، وفركوا أيديهم، الواحدة بالأخرى، أو حول السواعد، وهكذا ينشفون أيديهم؛ لأنهم لا يستعملون سماعات ولا فوطا ولا حتى مناديل، وعندما يغسلون أيديهم لا مسحونها، وإنما يتركونها في الهواء حتى تجف"⁽³⁷⁾.

د- اللباس:

سجّل الرحالة كرنخال، معطيات عديدة ومتنوعة، حول لباس ساكنة إقليم حاحا فبالنسبة للباس الرجال، فغالبا ما كان عبارة عن نوع من الثياب المصنوعة من "الصوف غير الملبد يلتون بها، وهي لا تقل خشونة من غطاء الفراش إلا بقليل"⁽³⁸⁾، إضافة إلى إزار من نفس الثوب "يغطيهم من الخزام إلى نصف الساق، ولا يضعون على رؤوسهم قبعات ولا طاقيات وإنما يلقونها خمس مرات أو ست حول رؤوسهم، كعمائم، وأجملها ما كان من قماش القطن المَعْلَم بالحمرة، مع جديلات تتدلى من الجانبين على شكل هذب أو قرعة"⁽³⁹⁾.

علاوة على ما تقدّم، كان لباس فقهاء إقليم حاحا "يتميز بقلنسوات حمر تُحمل إليهم من طليطلة وقرطبة، أو بعمائم صغيرة من القماش الغليظ. لا يرتدون القميص أبدا، لانعدام الكتان عندهم"⁽⁴⁰⁾.

في المقابل، نجد أن لباس نساء إقليم حاحا، يتكون في الغالب الأعم من عباءات أو سترات، يطلقون عليها اسم (الحايك) "شبيهة بالسترات التي يرتديها الأتراك أو المغاربة فوق ثيابهم"⁽⁴¹⁾، كما يرتدين أيضا "قمصان من القماش طويلة وعريضة جدا"⁽⁴²⁾.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كان لباس النسوة ذوي الجاه والحظوة، يتكون عادة من "قماش مخطط بالحرير مربوط في صدورهن بمشبك من الفضة أو الصفر. على غرار الإبزيمات التي تجعل على صدر الحصان، لكنهن يحملن في أذرعهن أساور كبيرة من فضة وخالخل ضخمة فوق كعاب أرجلهن. واللواتي لا يستطعن أن يقتنين هذه الخلي من فضة يتحلين بها من حديد أو صفر، كما أنهن يعلقن بأذنهن ثلاثة أقراط أو أربعة من ذهب أو فضة أو حديد، كلّ واحدة حسب وضعيتها، تنظم فيها حبات من زجاج ملون، مبنوثة فيها لآلى صغيرة"⁽⁴³⁾.

ه- الصحة والأمراض وطرق العلاج والتداوي:

لم يذكر الرحالة كرنخال الأمراض والأوبئة، التي كانت متفشية في إقليم حاحا وأحوازها بيد أنه يُشير إلى أنّ الإقليم لا يتواجد فيه لا أطباء، ولا صيادلة، ولا جراحين، لكنّه

يسجل أنّ ساكنة المنطقة، غالبا ما كانوا يتداوون من الأمراض، إما بالحمية، أو بكي العضو المصاب⁽⁴⁴⁾.

و- العادات الاجتماعية:

يتضح من خلال معلومات الرحالة كرنخال، حضور بعض العادات الاجتماعية في إقليم حاحا زمن السعديين، صحيح أنّ الرحالة المذكور سجل عنها فقط معطيات وبيانات جدّ شحيحة ومقتضبة، ورغم ذلك، يرجح، بكيفية أو بأخرى، أنّ هذه العادات كانت رائجة في إقليم حاحا وأحوازه، خلال الفترة المدروسة، ومن بين هذه العادات الاجتماعية نجد على سبيل المثال لا الحصر، عادة حلق "الشبان رؤوسهم ولحاهم إلى أن يتزوجوا وعندئذ يُعفون شعر اللحية ويتركون ذاؤبة في أعلى رأسهم، سيعرف بها المسلمون يوم القيامة حسب قول العرب"⁽⁴⁵⁾.

ويتضح بجلاء أنّ هذه المعلومات التي ذكرها كرنخال هنا، قد استقاها مباشرة من كتاب الحسن بن محمد الوزان السالف الذكر، حيث يقول هذا الأخير في هذا الجانب: "وليس من عادة العزاب [في حاحا] أن تكون لهم لحى، وإنما يعفون لحاهم عندما يتزوجون"⁽⁴⁶⁾.

ومن العوائد الاجتماعية الأخرى، السائدة في إقليم حاحا وأحوازه، ظاهرة الاستقرار في مساكن مبنية بالحجارة والطوب، ومسقفة بأنواع الخشب الرفيع، على شكل دور ومداشر وقلاع وحصون؛ لأنّهم أهل عريش مستقرون، وليسوا أهل خيمة رحال، مثل سكان الصحارى والبساط، وما ذلك إلا بفضل موارد عيشهم القارة، التي هي: الغابة، والصيد والرعي، والغراس، والحراثة، وما تحتاجه من صناعة وتجارة، ثم نجد أيضا عادة إقامة الأفراح العائلية، التي يختلف حجمها باختلاف إمكانيات العائلة، بمناسبة زيادة مولود، خصوصا إذا كان ذكرا بكرا، أو بمناسبة الختان، أو ختم الولد للقرآن، أو إتمام حفظه نهائيا، والذي يليه تزويجه كما سبق⁽⁴⁷⁾.

ومن العادات الاجتماعية الأخرى، المنتشرة في مجتمع إقليم حاحا، والتي لم يذكرها مطلقا الرحالة كرنخال، هي عادة احتجاب المرأة البالغة عن الرجال، ففي عهد الطفولة يختلط الجنسان بكل حرية، وعندما تبلغ البنت سن الصيام، يلزمها أن تعتزل الذكور

البالغين الأجانب عنها، كما أنّ نساء المنطقة الحاحية، لا يجلسن مع الرجال في مجلس واحد، ولا يرقصون معهم في رقصات أحواش، مثل ما نجده في قبائل سوس والأطلس المتوسط، ولا يذهبن إلى السوق أبداً⁽⁴⁸⁾.

2- الحياة الاقتصادية:

أ- الإنتاج الفلاحي:

يبدو من إشارات الرحالة كرنخال، أنّ إقليم حاحا كان يعرف في الجمل نشاطا فلاحيا وزراعيا بسيطا، إن لم نقل ضعيفا، نستشف ذلك بجلاء، من خلال كلام الرحالة، الذي يقول في هذا الصدد: "لا يزرعون كروما ولا بساتين [...] كما أنهم لا يغرسون شجر الزيتون"⁽⁴⁹⁾، بيد أنه يُشير في موضع آخر من كتابه، إلى أنّ المنطقة الحاحية، ينمو فيها الشعير بكثرة، لكن القمح لا ينبت فيها أصلا⁽⁵⁰⁾، ويُضيف أيضا أنّ فلاحِي إقليم حاحا غالبا ما يحرثون أراضيهم بواسطة الحمير⁽⁵¹⁾.

إضافة إلى ما سلف ذكره، يُشير صاحب التأليف أن مدينة أگوييل، رغم صغر حجمها، فهي تحتوي على مجموعة من الأراضي الصالحة للحرث⁽⁵²⁾، كما أن مدينة الكيل توجد فيها بساتين عديدة، وفيها أشجار كثيفة، أغلبها أشجار: التين، والجوز، والكرم⁽⁵³⁾ كذلك تعرف مدينة تگوليت، مجموعة من البساتين والحدائق، التي تكثر فيها أشجار مثل: الجوز، والتين، والخوخ، والكروم⁽⁵⁴⁾، ونفس الشيء ينطبق على كلّ من مدينة تانزيرا، التي يكثر فيها الشعير والدُّخن⁽⁵⁵⁾، ومدينة تَدْنِسْت المليئة بالأشجار المثمرة، وبكلّ أنواع الخضّر⁽⁵⁶⁾.

ومن الأنشطة الفلاحية الأخرى، التي يعتمد عليها سكان إقليم حاحا، هي تربية النحل، حيث يُبيّن كرنخال أنها كانت من الأنشطة الرائجة في الإقليم، والتي كانت تشكّل موردا مهما بالنسبة للسكان⁽⁵⁷⁾، كما يلاحظ من خلال بيانات الرحالة كرنخال، أن إقليم حاحا يعدّ إقليم الماعز بامتياز، فهو الأكثر انتشارا من بين باقي أصناف الماشية الأخرى⁽⁵⁸⁾، ويكسبون من خلاله، أكبر ثرواتهم، أما البقر والغنم، فهو نادر جدا في المنطقة، والسبب، هو صعوبة رعيه في هذا الإقليم، الذي هو عبارة عن جبال وصخور

وعرة وصعبة⁽⁵⁹⁾، أما البغال، فهي الأخرى، نادرة في المنطقة، في حين نجد أنّ الحمير هي الوسيلة الوحيدة، التي يلتجئ إليها فلاحو المنطقة، لحرث أراضيهم الزراعية⁽⁶⁰⁾.

ب- النشاط الحرفي:

يتضح من خلال إشارات الرحالة كرنخال، أنّ إقليم حاحا كان يعرف تواجد مجموعة من الحرفيين والصناع، مثل: الإسكافيين، والخياطين، والحدادين، والنجارين، والصباغين وعدد من الصاغة اليهود⁽⁶¹⁾، وقد ساعد على ازدهار هذه الحرف والصنائع، توفر المنطقة الحاحية على المواد الأولية المحلية، وعلى الأسواق التجارية⁽⁶²⁾، التي ساعدت بشكل كبير في تسهيل عمليات البيع والشراء بين السكان المحليين، وحتى مع الأوروبيين⁽⁶³⁾.

ج- النشاط التجاري:

سجّل الرحالة كرنخال معلومات عديدة ومتنوعة، حول النشاط التجاري في إقليم حاحا، ومن بين المعطيات التي ذكرها عن الموضوع، شيوع تجارة النحل، بسبب الكمية المعتبرة من الشمع المستخرج منها⁽⁶⁴⁾، ثم تجارة الجلود التي كانت رائجة في كلّ نواحي المنطقة، حيث كان التجار الأجانب، يأتون من مختلف الدول الأوروبية لشراؤها⁽⁶⁵⁾، إضافة إلى الاتجار في العسل خاصة مع الأوروبيين⁽⁶⁶⁾.

وقد أسهمت الأسواق والمواسم، في دينامية التجارة بإقليم حاحا⁽⁶⁷⁾، حيث يُخبرنا كرنخال في هذا الصدد، أنه في مدينة أديكيس مثلا، يُقام فيها سوق يدوم نحو خمسة عشر يوما، ويقصده جميع السكان، حاملين معهم مواد عديدة، مثل: الصوف، والسمن والزيت، والشمع، والأقمشة الخشنة، وأشياء أخرى مماثلة⁽⁶⁸⁾.

د. الحياة العلمية والدينية:

قدّم الرحالة كرنخال بخصوص العلم في إقليم حاحا معطيات شحيحة، لا تسمح البتّة بإعطاء تصور شامل، حول موضوع العلم والتعلم بالمنطقة المذكورة، ومّا سجّله الرحالة في هذا الجانب، أنّ ساكنة الإقليم لا يعتزّون بالتعلم، ولا يعرف أحد منهم القراءة، باستثناء بعض الفقهاء⁽⁶⁹⁾.

وما يركي هذا التصور الأخير، إشارة الرحالة الحسن بن محمد الوزان الفاسي، القائل بأن: "التعليم غير معروف في هذه البلاد، فلا تجد فيها من يحسن القراءة"⁽⁷⁰⁾.

لكن في مقابل هذه المعلومات، يذكر الرحالة كرنخال، في موضع آخر من كتابه، أنَّ المنطقة الحاحية تتواجد فيها مدارس عديدة للصغار والكبار، مليئة بفقهائ عارفين بأمور شريعتهم⁽⁷¹⁾، حيث يقصدهم الناس من كل ناحية، لدراسة علوم الفرائض والحساب⁽⁷²⁾.

أمّا ما تعلق بالدين والتدين في إقليم حاحا، فيشير كرنخال أنه رغم كون ساكنة إقليم حاحا من المسلمين، إلا أنهم لا يعرفون من هو الرسول محمد (عليه السلام)، وما هي شريعته، بيد أنهم رغم ذلك يعملون ويقولون دائما، ما يسمعون من أقوال الفقهاء، وما يشاهدون من أعمالهم⁽⁷³⁾.

بيد أنه مقابل هذا الكلام، يستدرك الرحالة كلامه بالقول إنَّ ساكنة إقليم حاحا يستمتعون كثيرا، وهم ينصتون إلى الأحاديث الدينية⁽⁷⁴⁾.

إلى جانب المعطيات السابقة الذكر، يتوفر إقليم حاحا على مجموعة من المساجد، لأداء الصلوات، وممارسة الشعائر الدينية، بيد أن هذه الأخيرة، يُلاحظ انطلاقا من شهادة الرحالة كرنخال، أنها غالبا ما كان يلجأ إليها معظم سكان حاحا، خاصة عند حدوث الأخطار والنزاعات، وكأنهم يكونون في مأمن ضد القتال باليد، على حدّ تعبير كرنخال⁽⁷⁵⁾.

خاتمة:

يبدو من حصاد ما سلف، أنَّ كتاب (إفريقيا) للرحالة والمؤرخ الإسباني لويس ديل مارمول كرنخال نفيس ونادر، نظرا لما يزر به من معطيات ومعلومات، قيمة في غاية من الأهمية، من شأنها، إذا ما استغلّت بالكيفية المثلى، أن تساعدنا لا محالة على ملء الفراغ المعرفي الذي تشكو منه الكتابات المحلية، المتميزة بالشح والابتسار، على صعيد عناصرها الإخبارية. وعليه، فالعودة إلى مثل هذه الكتابات الرحلية الإسبانية، رغم نظرتها الاستعلائية، وأحكامها المسبقة، وخطابها الذي يشرعن للغزو والهيمنة، أضحت اليوم

ضرورة ملحة، يفرضها البحث التاريخي المعاصر، من أجل الاستفادة منها، خاصة في مقارنة مواضيع وقضايا جديدة، تهم أساسا: التاريخ الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والديني. صحيح أنّ هذه الكتابات الرحلية الإسبانية، لن تمكّننا أبدا من رسم صورة شاملة وواضحة حول تاريخ المنطقة الحامية وحضارتها، بيد أنّها على الأقل بإمكانها أن تستكمل لنا بعض التصورات، وتسدّ بعض الفجوات، التي تعاني منها مصادرها المحلية الكلاسيكية.

الهوامش والإحالات:

- (1)- Pablo Ignacio De Dalmases, Viajeros por el Sahara Español: Antología de relatos viajeros, Madrid: Grupo Editorial Sial Pigmalión, Primera Edición, 2016, p.23.
- (2)- مارمول كرنخال، وقائع ثورة الموريسكيين، (جزءان)، [ترجمة وسام محمد جزر، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن]، القاهرة: المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، 2012، الجزء الأول، ص.8.
- (3)- Pablo Ignacio De Dalmases, Viajeros por el Sahara Español, op.cit, p23.
- (4)- مارمول كرنخال، إفريقيا، (3 أجزاء)، [ترجمة محمد حجي وآخرون]، الرباط: مكتبة المعارف منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط1، 1404هـ/1984م، الجزء الأول، ص.4.
- (5)- Ismet Terki-Hassaine, "Historiographie espagnole moderne sur l'Algérie ottomane", In Literatür Dergisi, Cilt 8, Sayı 15, 2010, (pp.425-438), p.430
- (6)- مارمول كرنخال، إفريقيا، م.س، الجزء الأول، ص.5.
- (7)- نفسه.
- (8)- Pablo Ignacio De Dalmases, Viajeros por El Sahara Español, op.cit, p24.
- (9)- إبراهيم حركات، السياسة والمجتمع في العصر السعودي، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، طبعة 1408هـ/1987م، ص.11.
- (10)- عادل النفاقي، المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغرب، حفريات في أدب الرحلة-القرن 16: في الهوية والتدين والثقافة، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، 2015، ص.8.
- (11)- مارمول كرنخال، إفريقيا، م.س، الجزء الأول، ص.12.
- (12)- Ismet Terki-Hassaine, "Historiographie espagnole moderne", op.cit, p430
- (13)- مارمول كرنخال، إفريقيا، م.س، الجزء الثاني، ص.5.
- (14)- نفسه.
- (15)- نفسه، صص.5-6.
- (16)- نفسه، ص.6.
- (17)- نفسه، ص.8.

- (18)- نفسه.
- (19)- نفسه، ص.25.
- (20)- نفسه، ص.18 وص.22.
- (21)- نفسه، ص.17.
- (22)- نفسه، ص.7.
- (23)- نفسه، ص.16.
- (24)- نفسه، ص.20.
- (25)- نفسه، ص.7.
- (26)- نفسه، ص.10.
- (27)- نفسه، ص.14.
- (28)- نفسه، ص.16.
- (29)- نفسه، ص.15.
- (30)- نفسه، ص.16.
- (31)- نفسه، ص.7.

(32)- الأركان: هو عبارة عن شجرة، ذات تاج كبير ومستدير، لكن جذعها قصير وغير مستقيم ومكسو بقشرة مشققة تشبه جلد التمساح. فروعها كثيفة وذات أشواك متعددة وصلبة. أوراقه ملعقية الشكل وشبه نفضية، إذ أنها تتساقط بعد مدة طويلة من الجفاف. أزهاره صغيرة وذات لون أبيض وتظهر في فصل الربيع لتعطي ثمرات عنبية، وحجمها أكبر بقليل من ثمرة الزيتون. ولزيت الأركان استعمالات شتى في الحياة اليومية، لأهالي المنطقة الحاحية، فهو غذاء أساسي في طعام الإفطار ويدخل في تهيئ طاجين الغذاء، ويدهن به كسكس المساء كما تدهن به فتائل قناديل الإنارة، وتدهن به بعض الأخشاب والخطب، لتسهيل عملية اشتعال النار، ويدخل في كثير من عادات المنطقة الحاحية، فهو دهن للشعر عند الغيد، وهو رمز الخير الذي تحمله العروس إلى بيت زوجها. للمزيد من التفاصيل، انظر: عبد المالك بن عبيد، وسعيد أديوان، مادة "أركان"، ضمن معلمة المغرب، (23 جزء)، سلا: نشر مطابع سلا، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة النشر ط1، 1410هـ/1989م، ج1، صص.322-324.

- (33)- مارمول كرنخال، إفريقيا، م.س.، الجزء الثاني، نفسه، ص.6.
- (34)- محمد الزرهوني، العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرقي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر (1863/1280-1873/1290)، الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، سلسلة الأطروحات والرسائل(5)، ط1، 1998 ص55

- (35) - مارمول كرنخال، إفريقيا، م.س.، الجزء الثاني، ص.8.
- (36) - نفسه.
- (37) - نفسه، ص.6.
- (38) - نفسه.
- (39) - نفسه.
- (40) - نفسه، ص.7.
- (41) - نفسه.
- (42) - نفسه.
- (43) - نفسه، ص.6.
- (44) - نفسه، صص.6-7.
- (45) - الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، (جزءان)، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط.2، 1983، ج.1، ص.97.
- (46) - محمد أيت الحاج، مظاهر الحياة الثقافية بحاحا...، م.س.، ص.371-373. ومارمول كرنخال إفريقيا، م.س.، الجزء الثاني، صص.6-7-9.
- (47) - محمد أيت الحاج، مظاهر الحياة الثقافية بحاحا...، م.س.، ص.372.
- (48) - مارمول كرنخال، إفريقيا، م.س.، الجزء الثاني، ص.6.
- (49) - نفسه، ص.5.
- (50) - نفسه، ص.9.
- (51) - نفسه، ص.12.
- (52) - نفسه.
- (53) - نفسه، ص.15.
- (54) - نفسه، ص.25.
- (55) - نفسه، ص.9.
- (56) - نفسه، ص.22.
- (57) - نفسه، صص.18-19.
- (58) - نفسه.
- (59) - نفسه، ص.9.
- (60) - نفسه، ص.9-10.
- (61) - نفسه، ص.16.

- (62)- محمد أيت الحاج، مظاهر الحياة الثقافية بحاحا وايداوتنان خلال القرن الرابع عشر الهجري 1301-1400هـ/1883-1979م، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى 1436هـ/2015م، صص.56-62.
- (63)- مارمول كريخال، إفريقيا، م.س.، الجزء الثاني، ص.5.
- (64)- نفسه، ص.6.
- (65)- نفسه، ص.15.
- (66)- محمد أيت الحاج، مظاهر الحياة الثقافية بحاحا...، م.س.، صص.61-62.
- (67)- مارمول كريخال، إفريقيا، م.س.، الجزء الثاني، ص.16.
- (68)- نفسه، ص.6.
- (69)- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، م.س.، الجزء الأول، ص.98.
- (70)- مارمول كريخال، إفريقيا، م.س.، الجزء الثاني، ص.20.
- (71)- عمر بنميرة، النوازل والمجتمع: مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط، [تقديم عبدالرحيم بنحادة]، الرباط: مطبعة الأمنية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس سلسلة رسائل وأطروحات رقم 67، الطبعة الأولى، 2012. ص.84.
- (72)- مارمول كريخال، إفريقيا، م.س.، الجزء الثاني، ص.5.
- (73)- نفسه، ص.27.
- (74)- نفسه، صص.15-16.

قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر:

- كرنخال، مارمول، وقائع ثورة الموريسكيين، (جزءان)، [ترجمة وسام محمد جزر، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن]، القاهرة: المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، 2012.
- كرنخال، مارمول، إفريقيا، (3 أجزاء)، [ترجمة محمد حجي وآخرون]، الرباط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1404هـ/1984م.
- الوزان، الحسن بن محمد الفاسي، المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، (جزءان)، [ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر]، بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1983.

2- المراجع:

- آيت الحاج، محند، مظاهر الحياة الثقافية بحاحا وايداوتان خلال القرن الرابع عشر الهجري 1301-1400هـ/1883-1979م، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى 1436هـ/2015م.
- بنميرة، عمر، النوازل والمجتمع: مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط، [تقديم عبد الرحيم بنحادة]، الرباط: مطبعة الأمنية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 67، الطبعة الأولى، 2012.
- حركات، إبراهيم، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة طبعة 1408هـ/1987م.
- زرهوني، محمد، العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرقي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر (1863/1280-1873/1290)، الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، سلسلة الأطروحات والرسائل رقم 5 الطبعة الأولى، 1998.

- النفاتي، عادل، المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغرب، حفريات في أدب الرحلة - القرن 16: في الهوية والتدين والثقافة، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، 2015.

- Pablo Ignacio De Dalmases, Viajeros por El Sahara Español: Antología de relatos viajeros, Madrid: Grupo Editorial Sial Pigmalión, Primera Edición, 2016.
- Ismet Terki-Hassaine, "Historiographie espagnole moderne sur l'Algérie ottomane", In Literatur Dergisi, Cilt8, Sayı15, 2010.